نهاية حلم شجاع

عبير المدهون

أمسكت بقلم يرتعش بين أناملي حنيناً لذكريات نُقشت على جدران الزمن، ذلك القلم الذي اعتاد مرافقتي في كل لحظة من لحظات صفحاتي، كثيراً ما شاركني فرحي، وحزني، وقلقي، وتطلعاتي. راودتني الحيرة، تُرى من أي نقطة سأبدأ حكايتي. وجدت قلمي يستجمع قواه ليبدأ حكاية طفلة صغيرة حملت بين يديها ذكريات مطوية عن وطن ولدت فيه، وعندما كبرت أفاقت على وطن آخر. تلك الطفلة التي كانت تحظى بمحبة مكتنزة من والدها الذي كان سعيداً بها وهي ترتدي ثياب المدرسة لتنطلق لعالم واسع. كان يوصلني بسيارته ليمر بطريق متعرج فوق جبال وعرة لتصل ابنته بسلام لمدرستها التي تقبع فوق الجبل بمدينة النماص السعودية ذات الطبيعة الساحرة.

ما زال قلمي يفتش في ثنايا الذاكرة بحثاً عن تفاصيل تصف مدى سعادتي وأنا أعتلي سلم النجاح، فتنهال عليَّ وعلى والدي عبارات التقدير والثناء من معلماتي ومديرتي.

قضيت في تلك المدرسة أجمل اللحظات، وكنت كثيراً ما أسمع عبارات المدح، فيزيد اعتزازي بنفسي. أنهيت المرحلة الابتدائية في ربوع المملكة العربية السعودية. ولم تخلُ تلك السنوات من قسوة بعض المعلمات على الطالبات الضعيفات، كنت أرقب عن كثب ملامح الخوف على وجوههن، فأسارع لأقدم لهن ما أستطيع فعله لينجون من عقابٍ محتم.

كان يجب على تلك الطفلة الصغيرة أن تغادر منزلها، وتترك ألعابها وتودع مدرستها وزميلاتها. لقد دقت أجراس العودة لأرض الوطن الذي امتلأ صدره بآهات وعذابات أبنائه الذين يرزحون تحت سياط المحتل. لقد كنت في تلك اللحظات مفعمة بإحساس الحنين لأحضان الوطن، والحزن على فراق أحبة في وطن آخر.

انطلقتُ محلقةً في السماء، أنظر من نافذة صغيرة، أرسم أحلامي الكبيرة فواحةً برائحة الأمل، عندما حطت قدماي الأرض اصطدمت بواقعٍ مؤلم. كيف لتلك الصغيرة أن تحلم وهي تفقد شعورها بالأمان في كل شيء من حولها لم تعتد عليه كعصفور حرٍ طليق، وفجأة وجد نفسه في قفص صغير. كيف سيستطيع الشدو!! في وطني الأطفال لا يجدون مكاناً للعب والترفيه، لا يستطيعون الخروج أو التأخر لوقتٍ طويل، لأن المحتل يفرض منعاً للتجول. يقضون أوقاتهم في مطاردة الجيبات العسكرية في الشوارع وبين أزقة المخيم.

قضيت كثيراً من الوقت وأنا أعاني صراعاً في ذاتي، وخوفاً وقلقاً لا يوصفان. استفقت على صوت أمي وهي تقول لي: أسرعي في تجهيز نفسك، لتسجلني في المدرسة. تضاعفت هواجسي وأنا أتساءل هل سأذهب وحدي؟ ماذا لو ضلت قدماي الطريق؟ ذهبتُ مع والدتي وهي تقول لي عليكِ أن تعتادي المشي في هذا الطريق، فكل شيء هنا مختلف.

بدأتُ أول أيام الدراسة في مدرسة بنات الرمال الإعدادية في مدينة غزة. كانت البداية صعبة، شعرت بالغربة، انكمشت داخل مقعد في زاوية الصف، وحثثتُ نفسي على الاندماج مع الطالبات لأتخلص رويداً .. رويداً من هواجس سيطرت على عقل أنهكه التفكير. لم أشعر بأي جذب أو تشويق طيلة الحصص الأربع الأولى، وأصبحت أقارن بين معلماتي في الماضي والحاضر، وبمجرد دخول معلم العلوم الذي شعرت تجاهه بالخجل واستهجنت ذلك قائلة «كيف سيعلمنا أستاذ إنه رجل؟!»، إلا أنني تركت ورائي كل التساؤلات وبدأت أنجذب لطريقته في الشرح، فأسلوبه يختلف تماماً عن الأخرين.

بمرور الأيام أصبحت أتشوق لحصة العلوم، لأنها الحصة الوحيدة التي نقضيها في مكانها الصحيح -إنه مختبر العلوم- نتفاعل بين الأدوات والأنابيب والتجارب العلمية. نطبق بأنفسنا ما يشرحه المعلم، ونتسارع في الإجابة عن أسئلته.

في نهاية الأسبوع، أذهب أنا وصديقاتي لزيارة مكتبة الثقافة والنور لنجمع المعلومات، وننهل من الكتب والمعارف، فتارة نجمع المعلومات العلمية، وتارة أخرى ننقب في روائع الأدب عن نبذة لكاتب أو شاعر ونعرضها في حصتي العلوم واللغة العربية، لتلاقي إعجاب الجميع واستحسانهم. لم أكن أهوى الطرق التقليدية لتلقي المعرفة. وأشعر بمتعة في البحث والتفكير، ودهشة من هول التقدم الذي يطرأ على العالم.

بدأت انجذب بجنون لعلم الفلك، واستعير الكثير من الكتب التي تروي قصصاً حول الأطباق الطائرة والمجرات والحياة على كوكب المريخ ولغز مثلث «برمودا». كان حلمي في ذلك الوقت أن امتلك تلسكوباً لأراقب فيه النجوم والكواكب، ولكني فشلت في تحقيقه. وعند انتقالي للمرحلة الثانوية، كنت محظوظة أيضاً بمعلم مادة الأحياء، حيث لمست فيه ما لم أجده في معلمي المواد العلمية الأخرى. إنها الطريقة التي أتوق لها؛ طريقة البحث والاستكشاف والتطبيق العملي، بعيداً عن رتابة الشرح التقليدي والأسلوب الاعتيادي في نقل المعرفة.

عدت مرة أخرى لمختبر العلوم، حيث نقوم بتشريح بعض الحيوانات وتحنيط كائنات أخرى. وفي إحدى المرات استوقفتني عبارة معلمي وهو يقول لنا «أحب الطالب الذي يسأل بكيف ولماذا، وينتابني الإحباط من الطالب الذي اعتاد أن يسأل ماذا؟». فكرت كثيراً بمعنى عبارته، وبدأت أنتهج في دراستي هذا المبدأ، فانظر للأمور بتعمقٍ وتحليل، وكثيراً ما أرفع يدي لأثير سؤالاً فأرى ملامح التشجيع على وجهه. ولسوء حظي، اضطررت أن أتنازل عن معلمي لأنه لا يدرس الثانوية العامة. ولكن بحثي عن المعرفة لم يتوقف، فتكللت مرحلة الثانوية العامة بنجاح وتفوق بتقدير مرتفع، ارتفع معه سقف طموحاتي وتطلعاتي. اصطدمت حينها بتعنت الأهل ورفض فكرة الدراسة في الخارج. أصبح السفر حينها درباً من الخيال، ولم تُجدِ كل محاولاتي.

كردة فعل تجاه ذلك الإصرار والتعنت، رفضت المنحة الدراسية بكلية التربية، وصممت على الدراسة في كلية الصيدلة بعكس رغبة والدتي. أصبحت الطفلة الصغيرة فتاة جامعية تتطلع باندفاع للأمام. إلا أنني لم أجد ما كنت أحلم به في التحرر من القيود التقليدية في الدراسة والتعلم، كنت أحلم دوماً بمساحة خاصة بي، لاستكشف وأفكر وأطبق وأخطئ وأصوب نفسي بين الأدوات والمركبات والأجهزة والتفاعلات الكيميائية. لكن مختبرات

جانب من مشاركة المعلمة عبير المدهون في لقاءات التكون المهني في غزة .

الجامعة لا تسمح بهذه المساحة من الحرية، كل شيء داخلها بميزان وضوابط، ما أثار في نفسي الخمول.

مع كل صباح يوم جديد أستيقظ فيه على تأنيب والدتي لي، ورفضها القاطع لدراستي، لم أكن أعتقد يوماً أنني سأتورط بمهنة التعليم التي طالما حفزتني والدتي لها. بدأت أدرك أنه من الصعب الاستمرار لخمس سنوات في مثل هذه الأجواء، فقررت بعدها الانصياع لرغبة والدتي لتحويل دراستي لكلية التربية. اجتاحتني ثورة التمرد على الواقع، ورفضت التحويل للكليات العلمية، وبدأت مرحلة جديدة تغير فيها مسار الحلم، اخترت دراسة اللغة الإنجليزية، وأوجدت قناعات جديدة، وأرغمت نفسي على الاقتناع بها. خلقت نوعاً من التحدي لذاتي، لأستطيع السير في طريق الحلم حتى لا تخونني الأقدام.

أنهيت الدراسة بتقدير جيد جداً مرتفع، إلا أن تطلعاتي لم ترتفع هذه المرة كسابقاتها. بمجرد تخرجي انطلقت لتحقيق حلم آخر، بعيداً عن مد وجزر الدراسة، في تكوين أسرة تنعم بالسعادة ويظللها الحب والتفاهم. وباستقبالي مولودتي الصغيرة توالت فرحة الحصول على الوظيفة.

استجمعت قوتي لمواجهة المسؤوليات الجديدة. فخلال بداية تعييني تنقلت من مدرسة إلى أخرى، ما بين الذكور والإناث، فوجدت فوارق كثيرة. أسلوب تدريس الإناث لا ينسجم مع الذكور، إنها بالنسبة لي مرحلة جديدة للتحدي، وبخاصة في مدرسة سيئة السمعة تحصيلياً وسلوكياً.

بدأت مرحلة مضاعفة الجهد في ذكور بيت حانون الابتدائية. كيف يمكن أن تلتزم بمنهاج معقد لطلاب لا يمتلكون أي معرفة بنطق الحروف وأساسيات الكتابة. تبلورت لدي حينها فكرة تحييد الكتاب المدرسي تمهيداً لمرحلة شاقة من البناء والتأسيس. لم ترق فكرتي لمدير المدرسة معلناً تذمره على عدم اكتراثي برأيه. أخذت على عاتقي الشروع بالعمل وتحمل الضغوطات كافة من حولي، ليس من السهل أن تطرح الأرض ثماراً دونما تعب أو جهد! فحرث الأرض وزراعتها بحاجة لوقت وصبر.

انتهت السنة الدراسية بتغيير جذري لكثير من الطلاب الذين أصبحوا قادرين على القراءة والكتابة واكتساب مهارات لغة ليست بلغتهم، فكانت النتائج مرضية. غمرتني مشاعر الفرح بنجاح كان في كل لحظة على حافة الهاوية بسبب قيود وأنظمة تعليمية بالية. استمر عملي فيها ثلاث سنوات، قررت بعدها خوض مغامرة جديدة، كوني أهوى المغامرات، وتأهلت لتدريس مادة جديدة انهالت عليها ردود الفعل ما بين مستنكر ومعارض. إلا أنني اتخذت قراراً وطرقت باباً جديداً لتدريس مادة حقوق الإنسان، لأُعلم الأطفال ثقافة الحوار والتقبل لا الرفض والتعصب، ولأزرع فيهم قيم الاحترام والتقدير.

الآن أصبح أمامي تحدٍ أكبر وأعظم، فحلمي أن نرقى لمجتمع تسوده الإنسانية، حتى لا تمزقه براثن الجهل والعصبية، حلمي أن يتمكن الطفل من تحقيق حلمه، لا أن يبيعه على أرصفة الطرقات، أن يتمسك بحقوقه حتى لا تزل قدماه في وحلٍ بغيض. حينها سيكتمل نجاحي لأُهديه لأطفال فلسطين.

مدرسة بنات غزة الإعدادية (ب)

جانب من مشاركة المعلمة عبير المدهون في لقاءات التكون المهني في غزة .